شعر الزهد والتشاؤم

قد لا تعثر على شاعر من شعراء العربية غير شجر ولا ساخط ، بل تكاد تلك النظرة السوداء تملك على الشعراء شعرهم ، فيقعون تحت تأثيرها ولا يستطيعون الافلات منها ؛ ولسنا هنا بسبيل التحدث عن تلك الفلسفة التي نبعت من الشرق وملأت جوه حتى أودعت النفوس حب الزهد والقناعة ، وغمرت القلوب رضاً بالقليل واطمئناناً إليه ، ففترت الهمم وضعفت العزائم ، وساد السخط على الحياة وما فيها من مناعم ومباهج ؛ بيد أنا نريد اليوم أن نعمل بقدر ما أوتينا على إنهاض النفوس وتقوية القلوب ، حتى تسير في ميدان الحياة مليئة بالهمة والاقدام ، غير آبهة بالصعاب والعقاب تحول بينها وبين أمانيها . ومن الجلي الواضح أن الأدب في الأمة هو قلبها النابض وروحها المتوثبة إلى الأمام ، فلا غرابة — إذن — حين نحفل بالآداب ، ونطلب إليها أن تحدثنا دائما عن النهوض والاقدام والعمل والجد بلا تواكل أو توان ، وقد عرف الأقدمون للأدب هذه الفضيلة ؛ فطلب « أفلاطون » أن نحذف من الشعر كل مايبعث الجبن والخوف في النفوس ، وقال في ذلك : « ونرجو ألا يسوء « هوميروس » ولا غيره من الشعراء حذفنا هذه الأبيات وأمثالها ، لأننا نحذفها لا إنكاراً لشاعريتها ورغبة الكثيرين في سماع تلاوتها ، بل قياساً على ما فيها من الشاعرية ؛ نحظر سمعها على الكبار وعلى الصغار الذين يجب أن يظلوا أحرارا وعندهم الموت خير من ذل الاستعباد » . وهكذا يبقى للشعر أثره في النفس فيغرس فيها الجبن ويملؤها بالزهد ويغمرها بالقناعة إن كان مليئا بتلك الصفات .

وإذا نحن بحثنا في المؤثرات التي عملت على القعود بالشرق والسير به إلى الوراء رأينا أثراً كبيرا من ذلك يعود إلى تلك الآداب المليئة بالتشاؤم المغمورة بحب الزهد والتواكل ، فانبث في الشباب روح الكسل والخمول ورضوا بالقليل ، وتركوا ميادين النشاط والعمل ، قانعين بحظهم غير مجهدين نفوسهم في نيل أمل أو بلوغ مأرب ، ومالهم وللآمال ! وهي لا تحل إلا حيث الهمة ، والعزيمة والنفس القوية التي لاتبغي الحياة إلا تملأها بالجهاد والعمل ، وهي مبتسمة راضية مغتبطة بتحقيق أحلامها — إن في القريب وإن في البعيد — وكلما أوفت على أمل تخفزت لنيل أمل جديد ، من غير أن يدركها فتور ، أو ينال عزيمتها خور ، وكل آمالنا أن تملأ النفوس بحب المثل العليا والسعي اليها بكل ماأوتينا من قوة ، غير يائسين إن قام بيننا وبين آمالنا عقبة أو حجاب ، واثقين أن الفوز حليف كل مثابر صبور ، وهذا هو مانسعى لغرسه في قلوب نشئنا ليشبوا عالمين أن الحياة لاخير فيها إن لم تملأ بالعمل والغبطة والجد والسعادة ، والتفاؤل بالمستقبل البهيج وما فيه من خير ونجاح . وأريد اليوم في تلك الكلمة أن أبين العوامل التي أنتجت لنا هذا النوع من الشعر وأن نذكر أثره في نفوس الناشئة لنرى أمن الخير للوطن أن يدرسه أبناؤنا أو الخير في حذفه واطراحه ؟ ؟

إذا نحن بحثنا عن الأسباب القوية التي أنتجت تلك الثمرة في أدبنا الشرقي وجدناها ترجع إلى عاملين قويين : أحدهما طبيعة البلاد ، والآخر سوء فهمنا للدين ، ! إذ لسنا نستطيع إنكار ما يبعثه فينا مناخنا وجونا من حب الركون إلى الراحة وحب الاستسلام إليها ، فمتى وجد أحدنا عيشه لا يفكر يوما ما في أن يعمل على الزيادة والرقي ولا يبغيهما إلا من طريق الراحة وإعفاء النفس من الكد والجهاد ، وكلما قربت خطا الاستواء رأيت تلك الظاهرة واضحة جلية ، ويظهر لي كذلك أن الجو الزراعي حيث كل شيء موكول فيه إلى الزمن وحيث يعيش المرء مضطراً غير مختار ، بطيئا غير متحرك ، لا يستطيع أن ينتج إلا الزهد والقناعة والكسل والاستسلام ، وكأنه يدعو المرء إلى النوم والقعود ، لا إلى العمل والنشاط ، وكأنما حرارة الجو وسهولة العيش تملأ النفس عزوفا عن الجد وحبا في الزهد واطمئنانا إليه ، وما لها وللحرص والكفاح في الحياة لتنال حظا أحسن وعيشا أرغد وسبل الحياة أمامها ممهدة يسيرة ولم تعتد الكفاح والجهاد لتنال حظها من السعادة والنجاح .

كان لذلك من غير ريب أثر بالغ في إنشاء تلك النفسية الزاهدة التي أرغمتنا على أن نعيش قانعين ، راضين مغتبطين بحياتنا الكسلة القائمة التي لا تحب السير إلى الأمام ، فإذا أضفنا إلى هذا ما فهمناه خطأ في الدين ، إذ زعمناه يدعو إلى الزهد والقناعة والرضا بالقليل مع بغض الحياة الدنيا والسخط عليها وإهمال العناية بأمرها ترقبا للدار الآخرة وما فيها من النعيم ظهر لنا ذلك الأثر واضحا جليا؟ .

فهمنا وكنا خاطئين حين ظننا ديننا الاسلامي الذي يدعونا إلى الأمام وإلى العمل وإلى الجد من غير فتور ولا ضعف يقعد بنا دون إدراك العظمة والمجد ، وعلا تنوسنا بغضا للدنيا وانصرافا عنها وميلا كليا إلى إهمال العمل والجد فيها والسعي في سبيل الترقي والترقي والسعادة في الحياة ، ولست أبغي الآن أن أذكر وجهة نظر الدين وأنه لا يريد أن يمنعنا من نيل الرفهية والرغد ، بل هو قد دعانا كثيرا إلى أن ننال حظنا منها كاملا غير منقوص ، غير أنه رمى إلى التوسط في كل شيء ولا زال التوسط خيرا وفضيلة ، والدين لم يدع إلا إلى الهدوء والطمأنينة المقترنة بالجد والعمل ، فإن قصرنا أو أهملنا فلن نعود باللائمة إلا على أنفسنا وحدها ، لأنا قد أسأنا فهم الدين ، وكانت إساءتنا لهذا الفهم — مضمومة إلى أثر المناخ و الجو — كفيلة بأن تملأ أفئدتنا زهدا وقناعة .

أما التشاؤم ونظرة السخط على الدنيا فنشؤها ضعف الهمة والهمة التي تقف أمام أول عقبة لا تحاول اجتيازها ولا تكلف نفسها مئونة الكد والجهاد ، فوقر في أنفسنا أن الدنيا لا تحسن يوما إلا أساءت أياما ، ولا تهب خيرا إلا أنالت شرا ، وغلبت علينا تلك النظرة السوداء ، فأنتجت هذا الشعر الخانق على الحياة الساخط على بهجتها وحسنها ، ولو أن عزيمتنا كانت قوية ناهضة لاستطعنا أن نتغلب على ما يعترض سبيلنا من صعاب ، وحينئذ نبلغ آمالنا

وما ترينا ، وتبدو لنا الحياة باسمة ضاحكة ، لا قاتمة سوداء ، وليس عندنا من شك فى أن الخور وضعف الفؤاد كانا عاملين قويين فى نظرة التشاؤم السوداء التى غمرت شعراءنا وطبعت شعرهم بطابعها فنظرنا إلى الدنيا من خلاله ـ بمنظار أسود قاتم ، غير محبب إلى قلوبنا ولا عذب لدى نفوسنا .

تلك هى العوامل التى أثمرت لنا هذا النوع من الشعر الذى يصح أن نطلق عليه بحق : شعر الخمول والموت : والآن نريد أن نذكر ما يتركه ذلك الشعر من الأثر فى نفس قائله ، لنرى ما يجمل بنا إزاءه ، وهل يحسن أن نلقنه نشأنا ونربيه شبابنا ؟ وماذا نعمله لننتج شعراً زاهياً زاهراً يبتهج بالحياة ويغبط بها ، ويملؤنا منها حبوراً وسروراً .

ظاهر ثابت أن الأدب يحل فى النفس أسمى مكان ، ويقودها إلى حيث يشاء ، إما إلى النعيم والسعادة ، وإما إلى التعس والشقاء ، ولا نكون مغالين إذا ادعينا أن الأدب هو المصباح الوهاج الذى يضىء للأمة سبلها ، ويرشدها إلى حيث تأخذ مكانها بين الأمم تحت الشمس ، وهو ـ بعد ذلك ـ القلب النابض والروح الوثابة ؛ ولقد كان اليونان يتشئون بنيهم على حب الفضيلة المبنوثة فى ثنايا الشعر والقصص ، حتى يقوم جيل ناهض بالبلاد عامل على الرقى والتقدم ، ويكفى أن نرجع إلى (جمهورية أفلاطون) لنرى ما كانوا يجملونه للأدب والفنون من المكانة التى لها فى نفوس الناشئين ؛ ولنستمع إلى « سقراط » وهو يحادث « أديمنتس » طالباً إليه أن يضع فى دستور المدينة وجوب ترك الشعر والأدب الذى يبعث فى النفس الجبن والخوف لينشىء جيلا شجاعاً غير هياب ، قال سقراط : فاذا كنا نروم أن ينشأ شبابنا على الشجاعة والبطولة : أفلا يجب أن نضيف دروساً تحررهم من مخاوف الموت ؟ أو تظن أنه يمكن أن يكون أحد شجاعاً ما دامت المخاوف مستولية عليه ؟ فأجابه اديمنتس : حقاً إنى لا أتصور ذلك .

سقراط : أو تظن أن من يؤمن بوجود (هادز) وأهواله يمكن أن يعيش حراً من مخاوف الموت فيؤثره فى ساحة القتال على هون الذل والانكسار ؟

اديمنتس : لا ، البتة .

سقراط : فيتحتم علينا أن نسيطر على الذين أخذوا على عاتقهم تلفيق هذه الأساطير وأمثالها ، فنلحف عليهم ألا يشنعوا بوصف العالم الآخر تشنيعاً فظيعاً ، بل يحسنوا فيه المقال ، لأن ذلك غير مفيد ولا صحيح ، ولا يوافق الذين سيكونون جنوداً .

اديمنتس : ذلك واجب علينا بالطبع .

سقراط : فلنلغ هذه الأبيات وما ماثلها ، ومنها :

فأرى استعباد نفسى لفقير فى الأنام
هو خير من عروش فى أعاميق الظلام . . . الخ

وهكذا عرف اليونان أثر الأدب فى النفوس ، فكان لهم نعم المرشد إلى سواء السبيل ..

وإذن فلنضع فى الأدب ولتلقن أبناءنا كل ما يحدوهم إلى الكمال والجمال غير مدخرين جهداً فى هذا السبيل ، ويتبع ذلك أن نكف عن تلقينهم مثل تلك الأشعار الميتة التى تحبب إليهم الجمود ، وتجعل الحياة أمامهم سلسلة من المتاعب والآلام ، ينظرون اليها بعين ملؤها التعاسة والشقاء ، ولن يفيدوا من ذلك إلا عيشاً بائساً يظلون بين أحضانه يائسين من غير أمل ولا رجاء .

لا ننكر أن فى العالم شقاء ، ولكن لا نحب أن نرهب ناشئتنا بأن الشقاء هو كل شىء فى هذا العالم ، وكم تكون سعداء مغتبطين يوم نغرس فى النفوس حب الجهاد مع التفاؤل والغبطة ، فالجهاد شرى لذيذ إن صحبته آمال كبيرة ، وأمان عذبة ، ولنضع نصب أعيننا أنا سنصادف مصاعب وعقاباً ، ولكنها سوف تتبدد أمام عزمنا وقوتنا ، فاذا آمنا بهذا سرنا فى الحياة بأبقى زاد وأمضى سلاح ، وإنى موقن بأن نظرتنا إلى كل شىء ستختلف وستتبدل ، فنرى الكون مبتهجاً بساماً ، فنقبل عليه بنفس شهية ، وقلوب رضية ، وهمة قوية ، ويزول ذلك التشاؤم الذى يملأ نفوسنا ، ونجعل الوجود والقدر أمامنا قاسيين بغيضين ، ولا نستطيع أن ننكر الأثر الذى يتركه التفاؤل فى النفوس ، إذ يشحذ العزيمة ، ويملأ القلب ولوعاً بالكد والعمل ، فهيا نعمل على أن نعفى نشأتنا من سماع هذا الشعر وحبه ، لنباعد بينهم وبين روح اليأس والتشاؤم ، ولنغرس فى نفوسهم دائماً عذوبة الحياة والرضا بها والغبطة فيها .

ولنحبب إليهم روح الآمال وعذوبتها ، والسعادة بالعمل على نيلها والاستزادة منها ، ولنطرح نفسية الزهد جانباً ، عالمين أنا خلقنا فى الحياة لننال أقصى مانستطيع نيله ، ولنحرز لأنفسنا كل ما فى وسعنا من رغد العيش والهناءة ، فنضع أمامنا دائما حب الرقى والطموح إلى العلا ، فلا نقف عند أمل بلغناه ، ولا نقنع بأمنية نلناها ، بل كلما نلنا مأربا رسمنا لنا طريقاً آخر إلى أمل آخر واضعين أمامنا مثلا أعلى نحث السير فى الوصول إليه ، ولندع شعر الزهد لأولئك الذين خلقوا فى الحياة ضعافا كسالى ، لايرفعون أعينهم ليروا نور الآمال الوضىء ، وكفانا ذلك العهد الطويل الذى قضيناه غافلين عن نعم الحياة وبهجتها قانعين بما لا يقتنع به إلا ضعاف الهمم فاتر و العزائم .

هيا بنا يارجال التربية ننشىء لمصر جيلا جديداً ، طامحا بحب الحياة ، طامحا لأن يبلغ السماء بقوة عزيمته ، وشجاعته وهمته ، وهو ضاحك السن مؤمن من كل قلبه بما سوف يبلغه من غبطة وسعادة وراحة وهناء ، فان بلغنا تلك الأمنية رأينا مصر زاهرة ناضرة بنبتها الرافهين الوادعين ، ولنبرهن للغرب بأن الشرق ليس هو ذلك الكسل ، الزاهد ، الساخط ، المتشائم ، بل هو الضاحك ، الباسم الناهض الطامح .

(البقية على الصحفة ٢٧١)